الفصل الثانى

جون ديوى

(١٨٥٩ ــ ١٩٥٢)

النزعة الأداتية بين « المنطق » و« الأخلاق »

إذا كان لجون ديوى مركز كبير فى تاريخ الفكر المعاصر، فما ذلك لمجرد كونه علمًا من أعلام الفلسفة الأمريكية فى القرن العشرين فحسب، بل لأنه قد نجح أيضًا فى التأثير على الكثير من معاصريه فى مضمار الفكر الأمريكى المعاصر، فضلا عن أنه قد وسع من نطاق «الفلسفة البرجماتية» فامتد بها إلى دوائر أخرى لم تخطر لكل من بيرس وچيمس على بال. والواقع أن «برجماتيـة» بيرس قد ارتبطت ببعض الدوافع النقدية والعلمية، فى حين صدرت «برجماتية» چيمس عن بعض البواعث الأخلاقية والدينية، بينما نجد لدى ديوى محاولة أصيلة من أجل الجمع بين الاتجاهين، مع الاهتمام فى الوقت نفسه بتطبيق «المنهج البرجماتى» على «الخبرة البشرية» **ككل**. ولكن ديوى لم يكن مجرد تلميـذ لكـل من بيرس وچيمس، وكأن كل جهده الفلسفى قد انحصر فى التأليف بين تعاليم هذين الفيلسوفين البرجماتيين، بل هو قد بدأ حياته الفلسفية تحت تأثير المثالية الهيجلية والنزعة الكانتية الجديدة. وآية ذلك أن اهتماماته الفلسفية المبكرة قد اتجهت نحو «مشكلة المعرفة» (الإبستمولوچيا)، كما أن الكثير من محاولاته الفلسفية الأولى قد انحصرت فى إثارة بعض المشكلات السيكولوچيـة والمنطقيـة، خصوصًا ما يتعلق منها بطبيعة الفكر والحكم.

حياة ديوى وتطوره الروحى

وقد ولد جون ديوى بمدينة برلنجتون Burlington فى العشريـن من شهـر أكتوبر عام ١٨٥٩ (وهى السنة نفسها التى شهدت صدور كتاب « أصل

الأنواع » Origin of Species لدارون) وقد تلقى ديوى تعليمه أولا فى جامعة فرمونت Vermont ، ثم لم يلبث أن انتقل إلى جامعة جونز هوبكنز Johns Hopkins حيث تتلمذ على يد جورج . س . موريس George S. Morris ، الذى كان أول من لقنه أصول الفلسفة الهيجلية. وقد اعترف ديوى نفسه — فيما بعد — بأن فلسفة هيجل قد خلفت أثرًا عميقا فى كل تفكيره ، وإن كان الجدل الهيجلى لم ينجح فى إغواء ديوى ، كما حدث بالنسبة إلى الكثيرين من أهل عصره . وأما الموضوع الذى كرس له ديوى رسالته للدكتوراه (سنة ١٨٨٤) فقد كان هو : « علم النفس عند كانط » . ولم يلبث ديوى أن حصل على درجة الأستاذية بجامعة متشجن Michigan حيث أصبح زميلا لأستاذه موريس . وظل ديوى يتنسم هواء هيجليًا صرفا ، ولكنه راح ينظر إلى الفلسفة الهيجلية كلها على أنها مجرد « تجريبية موضوعية » لا تهدف إلا إلى الكشف عن دور « الفكر البشرى » بوصفه « أداة ترابط » أو « شبكة علاقات » .

ولم يكن فى وسع ديوى أن يستبقى من فلسفة هيجل قولها بروح مطلق يتجلى عبر الأنظمة الاجتماعية ، ولكن ديوى مع ذلك قد ظل يؤمن بالأثر القوى العميق الذى تتركه البيئة الحضارية فى أفكار الناس ومعتقداتهم وميولهم الذهنية ... إلخ. والظاهر أن نزعة ديوى التجريبية قد أفادت من هيجل درسًا هاما فى فهم الطبيعة : فقد أدرك الفيلسوف الأمريكى الكبير أن ثمة « استمرارًا » أو « اتصالا » بين شتى أشكال الطبيعة ، كما أنه قد فطن إلى أن مهمة العقل البشرى تنحصر فى ضمان الانتقال من الشكل الواحد إلى غيره من الأشكال . ولم يلبث ديوى أن جذب هيجل نحو علم النفس ، فاستطاع بذلك أن يخلع على مقولات المثالية الألمانية معنى جديدًا تمثل بصفة خاصة فى مفهوم « إعادة التكيف » : Readjustment ومفهوم « إعادة البناء » Reconstruction .

وقد عرف ديوى وليم جيمس — أول ما عرفه — من خلال كتابه الشهير « مبادئ علم النفس » (الذى ظهر سنة ١٨٩٠) ، لا من خلال كتابه المتأخر : « الفلسفة البرجماتية » (الذى ظهر سنة ١٩٠٧) . وكذلك وقع ديوى تحت تأثير

جورج هـ . ميد George. H. Mead (الذى كان زميله فى متشجن ، ثم فى شيكاغو) ، فأخذ عنه فكرة البحث عن العلاقات القائمة بين علم النفس وعلم الحياة ، وتتبع باهتمام كبير نظريته فى اتصال الفكر بالجهاز العضوى ... إلخ .

ولم يكن من الغريب على مفكر كان يشعر دائمًا بالحاجة إلى تطبيق أفكاره والتثبت من صحتها فى مضمار الخبرة العملية ، من أن ينتقل ـــ فى أول فرصة مناسبة ـــ من مضمار علم النفس إلى مضمار علم التربية ، وكأنما هو قد أحس بضرورة التحقق من صدق نظرياته فى الذكاء والنشاط الذهنى بصفة عامة ، عن طريق العمل على تطبيقها فى مجال التربية العملية . وقد كان من بين الأسباب التى حدت به إلى قبول دعوة جامعة شيكاغو سنة ١٨٩٤ أن علم التربية كان يمثل عندها موضوعًا أساسيا من موضوعات قسم الفلسفة وعلم النفس . وقد استطاع ديوى هناك ـــ بفضل العون المادى والمعنوى الذى قدمته له جماعة من أولياء الأمور ـــ أن يفتتح مدرسة أولية (تحت رعاية جامعة شيكاغو) عرفت فيما بعد باسم « المدرسة التجريبية » ، وإن كانت العادة قد جرت على تسميتها باسم « مدرسة ديوى » . ولم يلبث ديوى أن أصدر عام ١٩٠٠ أول كتاب له فى التربية بعنوان : « المدرسة والمجتمع » حاول فيه أن يبين لجماعة المربين كيف أن محور العملية التربوية هو « المتعلم » نفسه ، لا « مادة » الموضوع المدروس ، وكيف أن تلاميذ المدرسة يكونون فيما بينهم مجتمعًا صغيرًا يشبه ـــ فى حياته ونشاطه ـــ المجتمع الكبير . وليس أدل على نجاح هذا المؤلف من أنه قد ترجم بسرعة إلى أكثر من ثلاث عشرة لغة (بما فيها اللغة العربية) ، فلم تلبثْ مبادئ ديوى التربوية أن شاعت فى العالم أجمع .

وقد أصدر ديوى عام ١٩٠٣ ـــ بالاشتراك مع طائفة من زملائه وتلاميذه « دراسات فى النظرية المنطقية » لقيت ترحيبًا كبيرا من جانب وليم جيمس (زعيم الحركة البرجماتية) . وقد وجد جيمس فى هذه الدراسات دليلا واضحًا على تأثر « مدرسة شيكاغو » بأصول المنهج البرجماتى ، خصوصًا وقد بدا بوضوح فى هذه المباحث أن ديوى كان قد تخلى نهائيا عن كل أثر من آثار

« الهيجلية » ، وأنه راح يضع أصولا جديدة لنظرية أداتية Instrumentalist فى فهم دور « العقل » أو « الذكاء » .

وقد ترك ديوى شيكاغو عام ١٩٠٤ ، منتقلا إلى جامعة كولومبيا بنيويورك حيث أصبح أستاذًا للفلسفة بها ، كما صار يلقى دروسًا فى التربية بمعهد المعلمين فى نيويورك . وقد كان وجود ديوى بهذه المدينة الكبيرة فرصة مواتية سمحت له بتكوين الكثير من الصلات ، فاستطاع هناك أن يتعرف على وودبردج Weudbridge (صاحب مذهب الكثرة أو التعدد) ، ومونتيج Montague (الذى كان مهتما بنظرية المعرفة) وغيرهما من أساتذة الفلسفة . وقد أصدر ديوى ـ خلال هذه الفترة التى قضاها بنيويورك ـــ عدة كتب هامة ، كان معظمها فى الأصل محاضرات ألقاها فى مؤسسات علمية مختلفة وربما كان من أهم مؤلفات ديوى كتابه : « كيف نفكر » (سنة ١٩١٠) ، وكتابه « الديموقراطية والتربية » (عام ١٩١٦) ، وكتابه « دراسات فى المنطق التجريبى » (سنة ١٩١٦) ، ثم مؤلفه الصغير : « إعادة بناء الفلسفة » (سنة ١٩٢٠) وكتابه : « الطبيعة البشرية والسلوك » (سنة ١٩٢٢) ، وكتابه « الخبرة والطبيعة » (سنة ١٩٢٥) ، ومؤلفه الضخم : « البحث عن اليقين » (سنة ١٩٢٩) ، وكتابه « الفن خبرة » (سنة ١٩٣٤) ، ومؤلفه الكبير : « المنطق ، نظرية البحث » (سنة ١٩٣٩) ، وهذه الكتب الثلاثة الهامة مترجمة إلى اللغة العربية ، ثم أخيرًا كتابه : « مشكلات البشر » (سنة ١٩٤٦) . وقد كان لهذه المؤلفات الهامة أصداء كبيرة فى عالم الفلسفة ، كما كان لديوى نشاط هام فى مضمار الحياة الاجتماعية والسياسية خارج نطاق الجامعة ، فاقترن اسم ديوى باسم الحركة « الاشتراكية الديموقراطية » فى أمريكا . وقد قام ديوى برحلات كثيرة خارج الولايات المتحدة ، فزار الصين واليابان وروسيا ، كما اشترك فى عدة مؤتمرات فلسفية عالمية . وقد عاش الفيلسوف الأمريكى الكبير قرابة ثلاثة وتسعين عامًا ، فاستطاع أن يشهد قلق البشرية على مصيرها فى عهدها الذرى الجديد ؛ ولم يكن من شأن هذه الثورة العلمية الكبرى